

تحية إلى الياس شوفاني

جابر سليمان*

وكان جدار العمر أقصر!

٢٦/١/٢٠١٣، وجدوه في انتظارهم
كالمعتاد جالساً على مقعده الأثير قبالة
التلفاز بسكينة وهدوء ودعة. كان مسبل
العينين، يضع كفيه على نحو متعاكس
في أكمام رداء نومه. لم يمهل الموت
يومها حتى يتناول عشاءه الأخير. ولعلّ
آخر ما تراءى له قبل أن يسلم الروح، هو
استدارة السفينة التي أقلته من حيفا في
١٩٦٢/٨/٥، إلى أميركا، حين لاحت له في
الأفق جبال الجليل الأعلى وصولاً إلى جبل
الجرمق الذي على منحدراته الغربية تقع
قريته معلياً.

قالوا إنه مات وحيداً في دمشق، لكنهم
مخطئون. فالأعوام الأخيرة التي اضطر فيها
الياس شوفاني إلى اعتزال العمل السياسي
والتنظيمي، لا العمل الوطني، كانت من
أخصب أعوام حياته عطاءً فكرياً، ومن
أكثرها رفقةً وأنساً ووصالاً، وذلك بعد أن
تخلّص ممّا سمّاه في سيرته الذاتية "الرفقة
السقيمة" لرفاق النضال السابقين.

من معلياً في الجليل الفلسطيني،
حيث ولد الياس شوفاني، إلى
باب توما في دمشق، حيث ووري جثمانه
في الثرى، كانت رحلة عمر حافلة بالعمل
والمثابرة والإلهام. وعلى الخريطة
الطبيعية لبلاد الشام، فإن الطريق من
الجليل إلى دمشق قصيرة، بل قصيرة جداً،
لكنها طويلة ومتعرجة ووعرة في خريطة
سايكس / بيكو، وقد استغرقت رحلة العمر
المضنية ثمانية عقود ويزيد. وظلّ الياس في
حلّه وترحاله يهتدي بنجمة من سماء معلياً
لم تفارقه إلى أن انطفأ شعاع العين وأسبل
جفنيه للمرة الأخيرة، ربما على زهرة حنون
من بستان الطاحون الذي كان يسميه أهالي
معلياً الشوفانية.
وعندما تفقده الأصدقاء ظهر يوم

* باحث فلسطيني.

جورج تاون إلى أن فاجأته حرب تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٣، فقرر حينها هجر المجد الأكاديمي والالتحاق بصفوف الثورة في لبنان. وكما يقول في سيرته الذاتية، فإن الفضل في ذلك يعود إلى صديقه حنا ميخائيل (أبو عمر) الذي كان قد حصل على الدكتوراه من جامعة هارفرد، وسبقه في الانتماء إلى حركة "فتح" في الأردن ولبنان، قبل أن تغيّبه متاهات الحرب الأهلية ما بين لبنان وسورية، ويُفقد له كل أثر في سنة ١٩٧٦. إنها لمفارقة أن يتقاطع مصيرا هذين المناضلين الكبارين في سورية! انتمى الياس إلى المدرسة اليسارية العربية المنتقدة للماركسية السوفياتية آنذاك، وأعجب بالثورة الفيتنامية. وكان ملهمه في هذا صديقه أبو عمر الذي كان قد زار فيتنام ودرس بعمق التجربة الفيتنامية، والذي سبقه إلى محاولة تأسيس "تيار ديمقراطي" يساري داخل حركة "فتح" يسترشد بالماركسية، بصفتها فلسفة لا أيولوجيا. ومن هنا انحاز الياس شوفاني إلى "فتح الانتفاضة"، قائداً ومنظراً، لاستكمال تأسيس "التيار الديمقراطي"، إلى أن اعتزل العمل السياسي والتنظيمي كلياً في سنة ١٩٩٢.

كان الياس مثقفاً عضواً بالمعنى "الغرامشي" للكلمة، لكن فاته، كما فاتنا، نحن الذين انتصرنا لفكرة التحول الديمقراطي داخل حركة "فتح"، أن الأفكار وحدها غير قادرة على تغيير الواقع، فهي بحاجة إلى بيئة ديمقراطية وشرط اجتماعي، كي تتحول إلى قوة تغيير ثوري. وفي المحصلة تمكّن "العسكر" من سحق الفكرة، وعبر الياس في سيرته الذاتية: "مرثية الصفاء" (١٩٩٢)، عن خيبة الأمل هذه بالقول:

حين أزلت ساعة الوداع تجمّع في بيته ثلة من أصدقائه ومحبيه المقيمين في الشام: اللواء فؤاد خيرت بك؛ أبو السعيد؛ فايز حديد؛ مصطفى الولي؛ محمد تميم؛ مهند. وجئت أنا والدكتور محمد مكداشي من بيروت بصحبة ابنته هند المكلمة برحيل والدها. هدأ هذا الحضور الحميم من روع هند، وأعاد إليها شيئاً من السكينة التي ينهزم الموت فيها في حضرة الأصدقاء ويخلي مكانه لحلو الذكريات. وسط هذا الجمع كان طاغياً ونبيلاً حضور اللواء فؤاد، وللنبل قدرة فائقة على تحويل الفاجعة إلى حزن شفاف يسمو على لوعة الموت والفرق.

في مشهد الوداع الأخير في كنيسة ودير الفرنسيكان بباب توما، التقى بضع عشرات من الرفاق القدامى للمشاركة في الجنّاز. وكان صدى قصف المدافع يتردد من بعيد. وعلى خلفية نشيد الموت هذا ألقى الأب رامي عظته، في رعية غير رعيته، رعية عابرة للأديان والهويات الضيقة والطوائف، فتحدث عن مواقف الفقيد الوطنية الناصعة في زمن التبست فيه المواقف والحدود. وأبّنه عن بعد، العشرات من رفاقه الآخرين في بيروت وتورونتو ومدن أخرى، وأسّر لي صديقه المقرب عمر شنبور الذي يقيم في كندا ويتردد على دمشق: "لا أستطيع أن أتصور الشام من دون الدكتور الياس".

عود على بدء: غيّرت هزيمة حزيران / يونيو ١٩٦٧ بوصلة حياة الياس شوفاني، فانتمى إلى حركة "فتح" في أميركا، معتبراً الهزيمة جزءاً من النضال الاجتماعي والوطني. حصل على الدكتوراه من جامعة برنستون في سنة ١٩٦٨، ودرّس في جامعة

طواحين الهواء، وإنما كان فلاحاً جليلاً
يغرس الأفكار، علّها تمكث في الأرض وتنفع
الناس.

رحل الياس شوفاني قبل أن تتكحل
عينية برؤية قريته معلياً، وهو يعبر عن هذه
الغصة والحسرة حين يهدي سيرته الذاتية
إلى ابنتيه هند ونور قائلاً:

ما ورثت وطناً حراً لأورثكما إياه.

بلى، كان جدار العمر أقصر يا الياس. ■

كان دافعي في بداية السبعينات
المساهمة في تطوير البناء
الديمقراطي في حركة "فتح". والآن
في نهاية الثمانينات نعيد إنتاج
ما انتفضنا ضده.

كمؤرخ كان الياس شوفاني إشكالياً في
منهج تفكيره، شديد الخصومة فيما يتعلق
بالدفاع عن مواقف الفكرية والسياسية،
وكان لاذعاً جداً في التعبير عن خصومته.
لكن هذا لا يعني البتة أنه كان يحارب

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(تقارير مختارة - ٥)

المساعدات الخارجية الأميركية لإسرائيل

١٢ آذار / مارس ٢٠١٢

جيريمي م. شارب

٧١ صفحة ٥ دولارات